نشأة المدينة

أو الوعي بالفضاء والجنس الأدبي

خديجة البوعزاي

تذهب أغلب الدراسات العربية إلى الاعتراف بكون علاقة العرب بالرواية، على غرار المسرح، تبقى علاقة حديثة العهد في مجتمعاتنا، بل ومستنبتة في التربة الإبداعية العربية، وذلك بالنظر إلى المقومات التاريخية، التي أنتجت هذا النوع الأدبي في البيئة الأوربية، فيما تعذر تحققه لدى العرب. وفي هذا الإطار، يؤكد الناقد والروائي المغربي محمد برادة على أن العرب، مهما حرصوا على إيجاد أصول في التراث السردي العربي للرواية، فإن مفهومها الحديث يظل مقترنا بالتبدلات العميقة التي طرأت على المجتمعات الأوروبية منذ القرن التاسع عشر، وغيرت بنياتها وأوجدت الدولة والمدن في ظل الثورة الصناعية وديناميةالطبقة البورجوازية (1).

ذلك أن هذه الدينامية التي أسهمت في ظهور الرواية لدى العالم الغربي، لم تبدأ بالتوافر في العالم العربي، إلا عند نهاية القرن التاسع عشر، بتساوق مع تحولات سياسية وفكرية أفرزت حركات مقاومة الاستعمار، ومهدت لقيام الدولة الوطنية. حيث جرى تعرف الثقافة العربية على الرواية العالمية من خلال محاولة بعض الكتاب الذين درسوا لغات أجنبية، ومن خلال الترجمة وسيرورة المثاقفة التي جعلت النقد والجامعات ينفتحان على نظريات الرواية ومناهج تحليلها(2).

يرجع ظهور الرواية، من الناحية التاريخية، إلى حصولِ تحوّل حضاري فارق، عاشته الحضارة الغربية، نتيجة انتقال نمط الإنتاج لديها من صيغته الزراعية، الذي كان متمركزا في البوادي الأوروبية، إلى نمط آخر جديد ومتطور، ظهرت أولى ملامحه داخل أكبر حواضر أوربا الغربية، بدءا من إنجلترا، قبل أن ينتقل إلى باقي الدول الغربية الأخرى، ومنها إلى أمريكا

الشمالية واليابان، بسبب النجاحات المطّردة التي حققتها الثورة الصناعية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

وسرعان ما أسْهَمَ هذا الوضع الصناعي الجديد في القضاء على هيمنة المجتمع الزراعي القديم، ليحلّ مكانه مجتمع جديد تميز ببروز طبقتيْن اثنتيْن : طبقة أرباب العمل المنتسبين إلى البورجوازية، والتي تكونت من أصحاب المؤسسات الصناعية والتجارية والمصرفية، الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية بامتلاكها لوسائل الإنتاج. وطبقة العمال التي تكونت من سكان المدن والنازحين من الأرياف بحثا عن فرص العمل التي وفرتها المصانع.

وقد كان من نتائج هذا التحول العميق ظهور عدة مستجدات، على المستويين الثقافي والسياسي، أما بالنسبة للمستوى السياسي فقد أدّت الثورة الصناعية إلى:

- تطبيق المبادئ الدستورية التي منحت للعمال والنساء حق الانتخاب،
- بروز أحزاب سياسية تدافع عن مصالح العمال وتشارك في الحياة السياسية،
- احتدام التنافس بين الدول الصناعية للسيطرة على مصادر المواد الخام والأسواق الخارجية، مما أنتج تفاقم الاستعمار وانقسام العالم إلى جزأين: جزء مهيمن تمثله البلدان الصناعية وجزء مستغل تمثله بلدان أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.

في مقابل ذلك، شهد الجانب الثقافي انتعاشه كبيرة، كان من نتائجها الإيمان بقدرة العقل البشري وبأهمية العلم والتقدم، وقد نشطت الحياة الثقافية عبر مراكزها، التي انتشرت في كل مكان من أوروبا، وأثرت المدينة على حياة الفرد الذي أخذ ينهل مما توفر له من أسباب التعلم والثقافة، مما أسهم في الرفع من مستوى الوعي لدى شعوب القارة الأوربية.

وفي ارتباط بمجال الأدب، أسهم هذا التحول في نمط الإنتاج وفي تغير بنيات وعقليات المجتمعات الغربية، في ظهور أنواع أدبية جديدة يبقى أهمها فن الرواية، الذي جاء نتيجة استنفاذ الملحمة لدورها في مواكبة تطورات العصر، وظهور إحساس جديد لدى المواطن الغربي بمعنى الفضاء وبمعنى الزمن.

وقد ساهم هذا المستجد في تيسير الانتقال من ذلك الاحتفاء الحالم بالفروسية وبالملاحم القديمة، إلى مقاربة كل أشكال الحياة التي باتت تفرزها المدن الصناعية، من مشاكل ومن أنماط

عيش أنتجتها حياة هذه الفضاءات الجديدة. أضف إلى ذلك أن ظهور الصحافة، بتقنياتها الاختزالية في تقديم الأخبار والأحداث ومواكبة المستجدات، ساهم هو الآخر في إنضاج الوعي الغربي في التعامل مع اللغة، خاصة في جانبها السردي التخييلي، وما شكله هذا الأمر من ضرورة تسخير الجهد وملكة الإبداع نحو مقاربة المشاكل التي بات يفرزها الصراع الجديد في شكل إبداعي مختزل، يساير وطأة الزمن وتسارع الأحداث وتعدد الأمكنة والفضاءات التي تعكس هذا التحول الحضاري الكبير.

وعلى هذا الأساس، حين نتأمل حيز " المدينة " كفضاء وكمركز ثقل إنساني جديد، بات يستقطب جهد الإنسان ويوجه اهتماماته، ربما ندرك سر تلك العلاقات الحميمة التي نشأت بين الأديب والمدن، باعتبارها فضاءات جديدة. إلا أن هذا المستجد لا ينفي قدم هذه العلاقة واستمرار تطورها وانصهار الإنسان في صروفها، على الرغم من أن الفضاء يبقى، مع ذلك، خاضعا لسنة التحول والتغيير وهو، إلى ذلك، غير خاضع للاستقرار.

من هنا اعتبرت المدينة فضاء جديدا ساهم في تجريد الإنسان من بعض آدميته، وحولته إلى ما يشبه الآلة، بسبب نمط الحياة الذي باتت تفرضه على ساكنتها. إلا أن المدينة بشوارعها وبناياتها لا تشكل، مع ذلك، سوى الوعاء الذي يحتضن بنيات ذهنية وثقافية ومجتمعية مختلفة، وهي، إلى ذلك، أماكن تجعل هذا الفضاء ككل، يؤثر بشكل أو بآخر في البنية النفسية المعقدة للفرد عامة، وللأديب على وجه الخصوص. وقد يكون هذا التأثير ذو وقع إيجابي على الذات المبدعة، بقدر ما قد تكون له تداعيات سلبية مؤثرة. إذ تصبح المدينة، في بعض الأحيان، هي أساس ومرتكز إلهام العمل الإبداعي.

ومع ذلك، فإن هذا الحضور المديني، قد لا يعكس، بشكل مباشر، هيمنة للفضاء الجغرافي الذي تسلكه الأحداث أو تنقل مجرياته، بقدر ما تسهم عناصر أخرى في ذلك، من قبيل الحياة المدنية التي تؤطر علائق الناس داخل فضاءاتها وأمكنتها وتفاعلهم معها في حياتهم اليومية. ولعل هذا الأمر هو ما يجعل أحداث النص الأدبي تدور في أعماق الحياة اليومية التي يحتضنها فضاء المدينة كإطار جغرافي. من هنا برزت قوة الرواية، كجنس أدبي جديد، كما أبانت عن قابليتها

المرنة والمساعدة على تمثل مشاعر وتقلبات الحياة الجديدة، التي بات إنسان المدن والحواضر المستحدثة خاضعا لها ومستسلما لإملاءاتها.

وفي علاقة هذا الجنس الإبداعي السردي الجديد بالشعر وبالحياة الجديدة داخل المدن، يذهب الفيلسوف الألماني هيغل إلى تأكيد نشأة الرواية بالتحولات الكبرى التي حدثت في سياق الوعي الأوربي، وذلك على اعتبار أن التاريخ الإنساني قد شهد تطورا من مرحلة اللاوعي إلى حالة الوعي. وبما أن الشعر ارتبط بمرحلة اللاوعي، فمن الطبيعي جدا – وفق النظرية الهيغيلية – أن ظهوره كان سابقا عن النثر. من هنا كان إسهام هيغل الرائد في البحث عن ملامح وخصائص الجنس الروائي المرتبط بالمجتمع البورجوازي الحديث، ليعود إلى علم الجمال قصد مقابلته بين السمات الفنية للرواية، والبناء الشكلي في الملحمة، وهو ما انتهي به إلى إقامة تعارض بين الشعر والنثر وإعلانه لفرضيته الشهيرة حول شعرية القلب التي تطبع الملحمة، ونثرية العلاقات الإنسانية التي تعبر عنها الرواية(3).

لذلك كانت الملحمة، باعتبارها شكلا أدبيا قديما، النوع التعبيري المناسب لدرجة تطور الوعي بالفضاء داخل المجتمعات القديمة. ومع تطور هذه المجتمعات، وتغير النظرة العمودية إلى الفضاء " سماء – أرض "، كان لا بد من اختفاء الآلهة والأبطال والأرواح الغيبية، مما أفضى إلى إفراز جنس أدبي جديد يتلاءم وتطور هذا الوعي الإنساني الجديد، الذي كانت المدينة قوته الدافعة.

وفي نفس المسعى، تابع الفيلسوف والكاتب والناقد المجري جورج لوكاش ملاحظات وتنظيرات هيغل، مستثمرا في ذلك الإسهام الفلسفي الماركسي لتفسير التناقضات الداخلية للمجتمع في علاقتها بالجانب الاقتصادي والسياسي، في أفق العثور على أسس تصور مادي جدلي للشكل الروائي بوصفه ملحمة بورجوازية(4).

ومهما يكن من أمر، يظهر أنه من الصعوبة بمكان أن نقرر عن يقين، بأن نشوء المدينة كان سببا في ظهور الفن الروائي. غير أن ذلك لا يمنعنا، مع ذلك، من القول بأن وجود المدينة والمجتمع المديني كانا من الأسباب القوية الفاعلة التي أسهمت في التأسيس لهذا الجنس الأدبي.

أضف إلى ذلك أن تلك الفترة كانت فترة ملائمة لظهور فن أدبي جديد، يأخذ في الاعتبار ما طرأ على العالم من تغيرات.

ولم يكن في المستطاع إلا أن ينشأ هذا الفن حاملا صفات وقابليات الفن الروائي، الذي لم يكتف بتصوير نمط الحياة في المدينة، بل اخترق فضاء المدن الصغيرة والبلدات كذلك. وفي خضم هذه الحياة الصعبة، وتحت وطأة العلائق الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، التي أفرزتها الثورة الصناعية، طرأ تغير على علاقة الإنسان بالزمن وبالفضاء، وأصبحت المدينة مادية وقاسية وقذرة... وهو ما انبرت الرواية إلى تصويره بفنية عالية وغير مسبوقة، بما يكشف عن ذلك الإحساس بالصراع والتوتر، الذي بدأ يكبر بين الفرد والفضاء الذي بات يحتضنه.

خلاصة القول، إن الفن الروائي أصبح ممكنا، بل قائم الوجود مع انبثاق المدينة كشكل حضاري، وعلاقات اجتماعية واقتصادية متطورة، التي ولدت إبان الثورة الصناعية، بما جعل من الرواية واحدة من صناعات المدينة البورجوازية الحديثة؛ إنها ابنة هذا الفضاء، الذي ما فتئ يمد مولوده بما ينميه ويطوره بوثيرة سريعة تضاهي تطوره هو. إلا أن هذا المولود، بعدما اشتد عوده وقوي عضده، سرعان ما سينفر من هذا الفضاء (المدينة)، ويثور عليه، من خلال تعريته والكشف عن تناقضاته وفضح بعض تركيباته الاجتماعية الفاسدة، وهو ما خلق تنويعا ومدارس واتجاهات، ساهمت في انفتاح هذا الجنس الأدبي على مختلف الإمكانات التعبيرية السائدة، بما هي أجناس وأنواع إبداعية قائمة، مستقلة الذات وشديدة الخصوصية.

الهوامش

1-برادة محمد " الرواية العربية بين المحلية والعالمية – الرواية العربية: الكونية أفقا "ـــ من أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي الحادي عشر 11– 13 دجنبر 2004 – منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت 2008، ص: 16

2-نفسه، ص: 16

3-بحراوي حسن، " بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية " المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء، ط 1،1990، ص: 5

4-لوكاتش جورج، "الرواية كملحمة بورجوازية"، ت ج طرابيشي، دار الطليعة، 1979، ص: 32

صدر حديثا

ظلالٌ تَسقط إلى أعلى
عُلَيّة الإدريسي اليوزيدي
شعر
منشورات بيت الشعر في المغرب

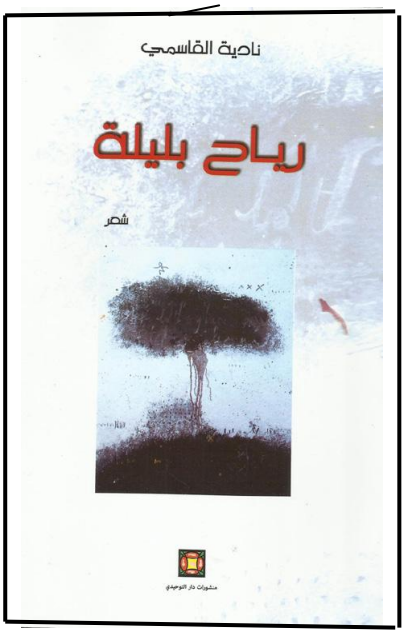
ناجية القاسمي
رياح بليلة
شعر
منشورات دار التوحيدي